المقتطف والحركة الفكرية

للدكتور محمد حسين هيكل بك

سيداتي وسادتي — اقف هذا الموقف كصحفي . وأنا سعيد بذلك غاية السعادة . مغتبط به اكبر الغبطة . فللصحافة مهمة سامية تقوم بها . وهذه المهمة تزداد سموًّا كلما تجرَّدت من مطامع المادة لانها تصبح تضحية للحياة في سبيل خير الجماعة . واغتبطت بأن اقف هذا الموقف لان حياتي الصحفية التي تمتد في الحقيقة الى ماضٍ غير قريب كان لها اتصال بمجلة المقتطف التي تحتفل اليوم بعيدها الخمسيني . وكانت في هذا الاتصال تعبر عن بعض خواطر في شأن الحركة الفكرية . لهذا كان طبيعيًّا ان احدثكم في هذا الحفل عن اثر المقتطف في حركة الشرق الفكرية والاجتماعية وأن أقصر حديثي على الحركة الفكرية والاجتماعية

***

سيداتي وسادتي — ارجوكم ان تعودوا بمصائر اذهانكم الى خمسين سنة مضت . الى ذلك اليوم الذي بدأت فيه مجلة المقتطف حياتها . وان تذكروا ما كان من حياة الفكر في الشرق سنة ١٨٧٥ . وما كان من حياة الفكر في الغرب سنة ١٨٧٥ . وما كان بين الغرب والشرق يومئذٍ من صلات سياسية وغير سياسية . وارجوكم ان تتقدموا مع السنين قليلاً قليلاً وان تروا غزو الغرب للشرق في مختلف ميادين الحياة . في العلم . والادب . والصناعة . والتجارة . وفي كل ميدان آخر وان تصوّروا لانفسكم ما وجب القيام به من الجهود لجعل الاتصال بين الغرب والشرق في ابتداء هذه الغزوات غير قاس . هنالك تقدّرون ما كان للذين جاهدوا في منع الاصطدام بين القوتين الانسانيتين من فضل . وهنالك تذكرون بالخير من كان لهم في نشر افكارهما وفي تهذيبها وفي صقلها وفي تجميعها ودفع الزائف منها . ثم هنالك ترون قدر المجهود الذي يتفقهُ صاحبهُ في غير جبة ولا صوماء حين يجلس الى مكتبه وحيداً محاطاً بالكتب والالوف من اكبر الرؤوس التي قامت على تعمير تلك عمارة العالم وحضارتهُ . يناجي اصحاب هذه الرؤوس ويتفاهم واياهم من طريق كتبهم . ثم يبرز آراءهم ورأيهُ في آرائهم لمعاصريه ممن يقرأون لغتهُ

في سنة ١٨٧٥ كانت امم الشرق الغربي ما تزال بعيدة بعض البعد عن غزو الحضارة الاوربية

اياها غزواً شاملاً . وكان الاتصال بين الشرق والغرب ما يزال مقتصراً على بعض الصلات السياسية والفردية . لكن عيون اوربا كانت يومئذ مفتوحة واسعة محدقة الى هذا الشرق العربي تريد ان تحقق فيه اغراضاً لها وغايات . وكانت مصر من بين امم الشرق العربي تهافت على الغرب تهافتاً ما نظن ساستها كانوا يقدرون مدى آثاره . ففي سنة ١٨٧٥ تقرر انشاء المحاكم المختلطة في مصر وفي سنة ١٨٧٥ اشترت انكلترا اسهم قناة السويس من الخديو اسماعيل باشا وكذلك في سنة ١٨٧٥ كانت روسيا تتحرش بتركيا تمهيداً لتحتلها الى الحرب الروسية التركية . وكانت افريقا الشمالية كلها مطمح انظار فرنسا . وكان من شأن هذه الاتجاهات السياسية ان خلقت نوعاً من الصلة بين اوربا والشرق ظلّ ينمو ويتزايد وما زال ينمو ويتزايد الى وقتنا الحاضر

وفي سنة ١٨٧٥ كانت اوربا تموج بحركة فكرية قوية غاية القوة . فكانت النظريات العلمية والفلسفية القديمة قد اخذت تتهدم وتنهار امام الفلسفة الواقعية التي سكّن لها أوجست كونت في فرنسا وقام بنشرها جون ستورات ميل وهربرت سبنسر في انكلترا . وكانت نظريات لامارك وداروين وغيرهما ذات شأن يذكر عند كثير من اصحاب هذه الفلسفة الواقعية . وكانت هذه النظريات وما ترتب عليها من حركة في العلم شديدة وما كان من أثر هذه الحركة من نشاط في الاختراع ترد الى الشرق عن طريق بعض الغربيين الذين اقاموا فيه زماناً طويلاً ، وعن طريق بعض الشرقيين الذين تعلموا في المدارس الاوربية ونشأت افكارهم نشأة غربية

كان محتوماً مع هذا الاتصال المتزايد بين الشرق والغرب ، ومع هذه الحركة العلمية والفكرية والادبية الشديدة في الغرب ، ان تقابلها في الشرق حركة علمية وفكرية وادبية جديدة ، ولما كانت تطورات كلٍّ من ناحيتي الانسانية قد اختلفت قبل ذلك جد الاختلاف عن تطورات الناحية الاخرى فقد كان الاصطدام محتوماً . لكنما كان يهوّن من هذا الاصطدام ان يقوم جماعة بالتقريب بين الافكار التي يظن لاول وهلة أن لا سبيل الى التقريب بينها ، وان ينشر جماعة من دقائق علم الشرق وتفكيراته ما ييسر الاعتقاد بامكان التفاهم او بامكان التنافس بينهُ وبين الغرب تفاهماً يقرب بينهما او تنافساً يسوي بينهما وهذا المجهود لا يقوم به فرد وحده بل هو في حاجة الى تعاون عدد كبير من الافراد وكلما كان تعاونهم وثيقاً كانت نتيجتهُ مؤكدة وامكن خلق الجو الصالح للاحتكاك الفكري الذي يكفل نبات هذه النتيجة والتعاون لا يتأتى الاّ اذا كان للمتعاونين مركز يلتقون عندهُ يصدرون عنهُ ويردون اليه

من اول المراكز التي التقت عندها القوى التي حاولت نشر الفكر في الشرق العربي مجلة المقتطف ، ويحسبك ان تطلع على الاعداد الاولى منها لتقتنع تمام الاقتناع ان الغاية التي توخاها صاحباها من ايجادها انما هي نشر احدث الافكار والمعلومات على اصولها ومصادرها . وربما

كانت الوسيلة لذلك في تلك الاعداد الاولى تعتمد على الفن والترجمة للمعلومات العلمية اكثر من اعتمادها على الانشاء والبحث . فكان للمقتطف في ذلك من العذر ان التفكير الغربي لم يكن معروفاً بوجه في مصر والشرق الا بين طبقة قليلة محصورة جداً ، فوسيلة نشره انما تكون بنقل المعلومات التي يعتمد عليها والتي أدت ملاحظتها وترتيبها الى هذه العلوم الغربية التي نرى اليوم كما ان هذه العلوم ذاتها لم تكن في اوربا كما هي اليوم فان نصف القرن الذي مضى كان مملوءاً بالنشاط العلمي الى حد كبير

وظل المقتطف كمجلة يتقدم كما تقدمت واياه السنون . فبدأت فيه حركة الانشاء والبحث بعد سنوات قليلة وازدادت الاقلام التي تحرره تنوعاً وكثر الكاتبون فيه . ولما كانت الحركة الفكرية قد بدأت تأخذ بكثير مما في الغرب من معارف فقد نهضت حركة فكرية شرقية تحيي القديم من الادب والتفكير العربي وتدل ليبان ان العرب في الماضي لم يكونوا اقل من الغربيين اليوم شأناً وان أديبهم كان في كثير من الاحيان ارقى من الآداب الغربية . وكما كانت مجلة المقتطف هي الميدان الاول الذي التقى عنده الكتّاب لنشر المعلومات والآراء والافكار الغربية كذلك كان احد الميادين لنهضة التفكير والادب العربي وان لم يختص بهذه اختصاصه بتلك . وانك لتقرأ فيه كثيراً من شعر العرب ومن الادب العربي كما تقرأ كثيراً من شعر المعاصرين ونثرهم

وظلت حركة معارضة التفكير والأدب الغربي الحديث بالتفكير والأدب العربي القديم زمناً . ثم نشأت فكرة تراها ماثلة على صفحات المقتطف ايضاً . هذه الفكرة هي كيفية التوفيق في نفس اهل الشرق الغربية بين ثمرات الحضارة الغربية القديمة وبين الحضارة الاوربية الحديثة . من هنا نشأ تفكير جديد يرجع الى اوائل او آخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ومن هنا بدأت الفكرة الاجتماعية الحديثة تشغل أذهان الكثيرين . فحدثت حركة المرحوم قاسم امين عن تحرير المرأة ، وقام الاستاذ الشيخ محمد عبده للتوفيق بين نظريات العلم وقواعد الدين . وتناولت الصحف هذه وما اليها من المباحث الاجتماعية والفلسفية بالبحث والتمحيص . وكان للمقتطف في هذا الميدان حظٌّ كبير . فكانت الرسائل والمباحث التي لا تتسع لها الصحف اليومية تنشر فيه . وهذه الرسائل ممتعة عادة لانها تجمع بين التفصيل والايجاز . وكمجلة حرة كان المقتطف ينشر على صفحاته الآراء المختلفة المتضاربة بأمل الوصول الى الحقيقة من طريق البحث . وفي ذلك الجهاد تفنى خمسين سنة نحتفي اليوم بها . ولعل هذا الجهاد العلمي والفكري هو خير ما يفخر به اصحاب المقتطف من أعمال حياتهم . ولعلّ الدكتور صرّوف الذي انقطع للمقتطف منذ سنوات كثيرة يقضي نهاره وايامه عملاً للعلم ونشره وللمعارف واذاعتها — يشعر وهو في سنه ومكانته بما اداهُ من خدمة للفكر والاجتماع في الشرق العربي بمجلته ...

فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى

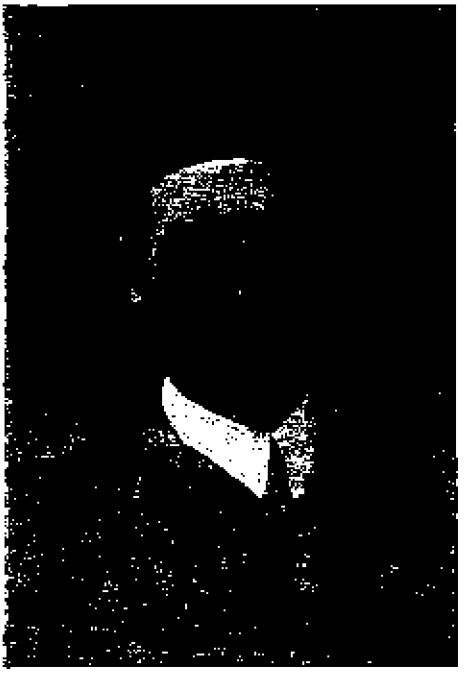

احمد لطفى السيد باشا

محمد المختار بك

أمين سامى باشا